زائرة الفجر

يبدو أن غفلة قد أصابت ست البنات ففزعت على دقات خديجة وزوجها سعيد وصوتهما فاستعدلت ومدت يدها وفتحت التراس ثم الباب فدخلت خديجة:

صباح الخير يا جدتي (كانت تناديها كهذا)

أومأ سعيد برأسه قليلاً إلى الداخل (عاوزة حاجة يا ست الحاجة)

لا يا سعيد ربنا يستر طريقك يا ابنى

الله يديكى الصحة وطولة العمر يا ست الحاجة.. سلام عليكوا...

ست الحاجة.. كم طال بها الندم كلما تمعنت في هذا اللقب وكم اعتصر قلبها أسفاً كلما أخرج لها الشيطان لسانه الرجيم مكيدة فيها، فكيف لمن تسلّحت بسيف الحق أن تتخلى عن أداء حق الفريضة ! مرت سنوات عمرها كريح عاتية أغرّها بأسها فلما طال امتدت شجرة أيامها فانحنت وصارت استقامتها من درب المحال.

أغلقت خديجة الباب بإحكام ومدت يدها لست البنات فقامت ثم اتكأت على عكازها الأبنوس

جهزى الحاجة يا خديجة بطني فاضية يا بنتي

حاضر يا جدتي.. يحضرلك الخير يا حبيبتي

كان المعتاد يومياً في هذا الوقت أن تحضر لها خديجة كوبا كبيراً من اللبن (الصابح) تجلبه معها يومياً بعد أن تحلب الجاموسة التي اشترتها لها السيدة فتنتفع بما تحتاجه من اللبن وما تبقى وهو الأوفر لخديجة وعيالها أما الجاموسة ذاتها فهي هبة من ست البنات لخديجة، ومع كوب اللبن قليل من عيش الفرن البلدي تُغمّسه في كوب اللبن (تسقية)، وجبة بسيطة وهادئة تستريح لها وتريحها حتى موعد الإفطار في وقت الضحى، عاودت السيدة الدخول إلى غرفة الاستقبال واستقرت على كرسيها المفضل بعد أن أخرجت العلبة فهى لا تمل كل يوم أن تعبث وتقلّب فيها ظناً منها أنها حينما تخلو إلى علبتها يتجسد لها من تركوا ذكرياتهم بداخلها.

كان طاهر شقيقها الأكبر في شهر مرضه قد استغنى عن نظارته التي لا زالت تحتفظ بها حتى الآن في العلبة، كان أقلهم في رؤية العين فقد أصيب بقصر النظر مما جعله لا يستغنى عن نظارته الطبية، وكان يعانى كثيراً وبالأخص في الأسبوع الأخير من المرض وكان آخر المفارقين بين إخوته الذكور.

كان بيت عطاالله ذو ضبط وربط ولم تأت المنغصّات غالباً إلا من فاطمة زوجة طاهر إلا أن فِتنتها ظلت خامدة كجمرة تحت كومة من القش الكثيف وما إن مات طاهر لاحت في أفق البيت علاّت النفس التي كانت تسكن قلبها، وبالرغم من هذا لم يندهش الجميع فكانت من قبل قد ظهرت مساوئها، ذات يوم اشتد النقاش بينها وبين الأرملتين رقية وفُتنة فلما ملأ قلبها وعقلها الشيطان عايرتهما بكونهما أرملتين دون أن تدرك أنهن السابقات وهى بعد شهور قلائل من اللاحقات.

كانت فاطمة (بنت العمدة) حريصة ألا تترك بيت عطاالله انتظاراً لموت ست البنات فتحصل على ميراث ابنها حيث أنه لم يتبق من ثروة أبيها سوى ثلاثة أفدنة بعد تقسيمهم على فاطمة وأخواتها الذكور الخمسة لن

يصيبها إلا القليل، لقد كان العمدة لا يشرب إلا أقوى وأرقى أنواع الحشيش ومن جاور العمدة يصير عمدة ولو في لحظات التجلي وهيام الانبساط.

وعلى النقيض تقريباً كانت طفولة عماد الذى صار يدمن الانطواء ربما اعتاد ذلك من كثرة ما كانت تمكث فاطمة بالأيام في غرفتها بعد (خناقة) مع الأخريين أو بعد أن توبخها ست البنات، كان ابنى عمه يدقان الباب عليه بغرض أن يلعبوا جميعاً في سور البيت... (غور ياض أنت وهو ضربة في بطنك منك له) تعودت رقية وفُتنة دعائها على الصغار فتمللوا من الرد عليها لكن لم يقدروا على منع الصغار.

مرت الأيام وست البنات تقبض على اللجام بحذر وقدرة عالية، ورغم أن الفرس كان يترنح كثيراً إلا أنه لم يتوقف وواصل سعيه في المضمار.

تغير قليلاً (الولد) طاهر في عمر المراهقة كان ينتشى وهو يسير مع ابنى أعمامه في شوارع البلد فهو الأكبر عمراً والأطول قامة وكان الولدين يقدمانه على نفسيهما في كل شيء كما غرست فيهم ست البنات أن (الكبير

كبير والصغير صغير) لا بأس فالعمة تعطى الدرس والأمهات تؤكد عليه إلا فاطمة فقد كانت من الجاحدين.

في السنة الأخيرة من الثانوية العامة اختلى طاهر بنفسه تماماً في غرفة أبيه فقد اعتاد ذلك من أمه، تغيب تماماً لأكثر من شهرين (لا مدارس بعد مارس) وانقطع عن الدنيا وصار راهباً في محراب الثانوية العامة حتى أن وزنه من كثرة الجلوس والنوم وعدم الحركة قد زاد عشرين كيلو جرام فطغت وجنتيه حتى ابتلعت عينيه الضيقتين اللاتي ورثهم عن عمته وأبيه وجده، بعد الامتحانات ظهرت النتيجة وحصل على ٨٨٪ والتحق بطب قصر العيني وذبحت له ست البنات عجلان سمينان الأول للفقراء والثاني أقيمت عليه مأدبة أضف إلى ذلك خروفاً طيباً طلبه من عمته التهمه هو وأمه على ثلاث وجبات.

كانت فرحة ست البنات مبعثها تلك اليافطة التي ستحمل اسم (عطاالله) في الشوارع والميادين ويا الله أن تأتى مقترنة باسم طبيب، كانت متحمسة أن يصير عماد طاهر طبيباً متخصصاً في أمراض القلب لكنه منذ عامه الثاني بالكلية كان قد اتخذ قراره بأن يتخصص في طب (النساء

والتوليد) وزاد إصراره بعد أن أصبح أقل جهداً في الكلية وبعد أن ابتلعته شباك (هويدا) التي كانت في السنه الثانية في كليه التجارة بينما كان هو في السنه الرابعة في كلية الطب.

كانت هويدا من نفس المحافظة التي كان منها طاهر وكان لها جارة زميله طاهر، وكانت ميرفت جارتها في بداية الأمر السبب الغير مباشر عن طريق الصدفة في التعارف بينهما ولّما كانت ميرفت على معرفة بطاهر وأسرته العريقة ولّما ألقت على سمع هويدا بكل ما تعرف عنه في ذهابهم وإيابهم ولحظات النميمة لبنات ما قبل الزواج فما كان من هويدا إلا أنها اتخذت القرار السليم الذى اهتدى له عقلها فكبّلته بهفهفات شعرها المتناثر ولجّمته بعينين لم تكن لــ (نسرين) وقضت عليه بلمسة من أطراف أصابعها أوقدت جسده حتى الضلوع، سرسبته إلى القفص واحتفظت بسلسلة المفاتيح إلى الأبد.

السهام وإن كثرت فالجرح الغائر يكفيه سهم واحد

صار طاهر في السنة السادسة وحينها كانت لحظة الخلاص قد آنت بالنسبة لفاطمة وبضغط من طاهر وبإظهار وجه تعلم ست البنات أنه مجرد (Mask) استأجرت ست البنات لطاهر ووالدته شقه في المدينة التابعة لها قريتهم ادعاءً منهما أن الدكتور لابد أن يتدرب في المستشفى الميري طيلة الأيام التي لا يذهب فيها إلى الكلية وبالطبع كان لابد من تزويد الشقة بتليفون أرضى حتى يستطيع الدكتور أن يتواصل مع أقرانه بل فيما بعد أصبحت فاطمة تتشدق فخراً أن التليفون لا يتوقف ليل نهار عن الرن لأن عمدان المستشفى صارت لا تقوى على فراق الدكتور وأن المرضى يتغزّلون في (خدوده) التي تمنحهم رؤيتها الشفاء، لقد فاق طاهر مجدى يعقوب فلم يكن للثاني نفس الخدود بالطبع.

هويدا انتظرته سنوات قليلة حتى افتتح عيادته بالمدينة كانت بحق عياده مميزة في إحدى العمارات في الدور الثاني علوى في الشارع الرئيسي وزينتها من الخارج يافطة بحجم ضخم على غير عادة أقرانه من الأطباء في المدينة كتب عليها :

دكتور / عماد عطا الله - نساء وتوليد

كم أُسعدت ست البنات بـ عطا الله وكم توسمت في عماد خيراً ظنته بعيداً من قبل وبأن الدم لا يصير ماء بينما كان عماد وبمشورة هويدا يبحث عن نغمه الاسم (حلة ولقت غطاها).

مضى عام على افتتاح العيادة، ذاع صيت الدكتور عماد عطا الله في أقل من ثلاثة أشهر، كان بالمدينة أربعة أطباء متخصصين من قبل وصار هو خامسهم، استمد شهرته من امكانات العيادة المجهزة على غرار عيادات القاهرة فلم تُقصّر ست البنات مع الطبيب الشاب في أي شيء وبعد مُضى العام صار (نمبر وان) في المدينة، ربما ساعده في ذلك وسامته التي ورثها عن أمه وجدته لأبيه رغم خدوده المنتفخة وربما اسم عطا الله الذى جلب له هوانم المدينة والقرى التابعة لها وتغافلوا عن موت سيدتين على يديه في أول عام له مع طب النساء والتوليد (عمرهم وأجلهم انتهى) كان عماد راضياً إلى حين وكانت هويدا لا زالت تقبض على مفتاح القفص بيدٍ من حديد أما فاطمة فكانت تنهر من لم يناديها بـ أم الدكتور.

صارت الأمور سانحة لإتمام زواج الطبيب وهويدا التي اتخذت القرار ومما أقرته أيضاً أن تستقل بشقة أخرى في عمارة جديدة من خمسة أدوار في كل دور شقتين كانت عمارة هي الأفخم ولم تُشغل إلا بثلاث شقق فقط أحدهما لمدير أحد البنوك والثانية لعميد شرطة والثالثة لأحد الأثرياء العائد من العراق بعد عشرة أعوام، خيّرها صاحب العمارة فاختارت الشقة في الدور الثاني علوى بجوار شقة مدير البنك، عارضت فاطمة ذلك بشدة في أول الأمر ولكن هويدا كانت على درجة من المهارة وكيد النساء حيث أقنعتها بل حببت إليها فكرة الاستقلالية وضربت لها على الوتر الحساس فاستقدمت لها خادمة نادتها من أول لحظه بـ (ست هانم أم الدكتور).

وهنا أشبعت بنت العمدة رغبة حرمت منها في وجود سيف عطا الله كم كانت هويدا حاذقة وكم كانت فاطمة سهلة الاحتلال.

طُبعت كروت الدعوة في القاهرة وكُتب فيها (يتشرف الطبيب الشهير د. عماد عطا الله بدعوة سيادتكم.....)

استاءت ست البنات من عدم ذكر ابنى عمه فبرر ذلك بأنها (موضة يا عمتي) وبررت هويدا لأبيها عدم ذكر اسمه بـ (هو حر يا بابا) كم كانت هويدا صاحبة قدرات خاصة في اجتياز المصاعب وفك شفرات البشر.

مضت الأعوام واكتفت هويدا بغلامين (مدحت على اسم أبيها، وأحمد على اسم أخيها) تقبَّلوا اسم (مدحت) لكنها بررت الثاني بأنه تيمناً ومحبة في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم كم كانت صاحبة دين وتقوى إلى حين أن تسكت ست البنات والباقون.

كانت زيارتها للبلد مع الولدين نادره تقريباً في العيدين فقط ثم بعد سنوات انقطعت تماماً لأن الدكتور صاحب المهنة المقدسة والقلب الفضفاض لا يتوانى عن مساعدة الناس حتى في العيدين رغم أنه كان يقضيها في رأس البر أو الإسكندرية.

بعد عشر سنوات استبدل الدكتور العيادة في شقة أكبر وبإمكانات أعظم وأصبح يعاونه ممرضتين وثالثه لتحديد مواعيد الزبائن واتسع في مجال علاج العقم الذى أضاف ذكره لليافطة المضيئة التي كانت الأولى من نوعها في المدينة.

لم يمض عام على استئجارهم شقة السكن إلا وامتلأت العمارة تماماً بعشرة سكان من الصفوة، ونال اقتراح هويدا على صاحب العمارة بأن يعيّن لهم بواباً انبهار الرجل ومما زاد من اقتناعه بفكرتها التي أقنعت بها الجميع أن يدفع كل مستأجر عشرين جنيهاً بإجمالي مائتي جنيه للبواب الجديد بشرط أن يقضى للسكان جميع احتياجاتهم ووافق درويش البواب فالمبلغ كان منتهى الطموح لخريج دبلوم الزراعة الذى كان يعمل في (الفاعل) وبعد فترة كانت هويدا أكبر المستفيدين فإن قضى درويش لأحد السكان حاجة قضى أمامها لهويدا ثلاث و أربع حاجات (نحلت وبره) ولولا بعض الهبات من بعض سيدات العمارة لفرّ هارباً من وجه هويدا لكن سلطان المال كان أحدّ من متاعبه وذهابه وإيابه.

بعد عامين من زواجها وسكنها في العمارة صارت هويدا (أنتيمة) حرم مدير البنك، لم تتعجل وانتظرت الفرصة حتى أتت فلقد كانت السيدة منى حرم المدير على وشك أن تضع حملها بعد ١٥ عام من الزواج بلا أطفال وبالطبع كانت تتابع مع الدكتور عماد وما إن وضعت حملها فكانت هويدا سبّاقه بأن جعلت الطبيب يتنازل عن تكاليف الولادة (هدية من الأخت

لأختها) ناهيك عن أنها لم تدفع شيئاً أثناء متابعة الحمل (دي حاجات بسيطة يا منى هانم).

وفى زيارة عائلية وإذ بالكلام يجرّ الكلام فوجهته هويدا نحو دراستها وكلية التجارة وكيف كانت متفوقة وكيف أن المرأة تحتاج العمل لإثبات ذاتها ولتأمين نفسها ضد غدر وعثرات الزمن مما أثار إعجاب السيد المدير على عكس زوجته التي رفضت أن يعيّنها في البنك في أول زواجهما وحتى طوال الأعوام التالية، وهنا أحكمت هويدا إغلاق الصندوق على جناب المدير الذى عرض خدماته وبإلحاح لتدبير وظيفة لها في البنك كرد لــ "جمايل" الدكتور وحرمه... تم تعيينها في أقل من شهرين في البنك فرع المدينة التي يقطنونها.

بمجرد موافقة ست البنات على بناء البرج وكما اشترطت كانت هويدا في أسعد حال حيث أن الهدف الأساسي من البرج هو تشييد مستشفى تخصصي على طراز فريد في الأدوار الثلاثة مع تخصصات محددة (النساء والتوليد – العظام – المخ والأعصاب – الجراحة – الجلدية) فإن كثر الشجر من حولك فثبت ناظريك على الثمار الناضجة ولا تنتبه لسواها.

أتم أبناء العم الثلاثة الاتفاق بحضور المحامي وست البنات وكان الاتفاق ينص على أن يتملك كل من عبدالله عبدون عطا الله وفاروق فؤاد عطا الله دوراً كاملاً لكل منهما على أن تكون الأدوار الباقية كاملة للدكتور عماد وفى حالة البيع فالأرض ثلاثية المِلك بين أبناء العمومة الثلاثة.

أقل من عام وشُيد برج عطا الله، الدور الأول علوى لعيادتي العظام والمخ والأعصاب بينهما استقبال مشترك والثاني علوى للجراحة والجلدية باستقبال مشترك والثالث علوى يحتوى على ثلاث غرف لإجراء العمليات المختلفة أما الدور الرابع علوى فكان لعيادة النساء والتوليد، لقد تخلى الطبيب هذه المرة عن الدور الثاني علوى فقد رأت هويدا أن المراقبة تكون أسهل من أعلى، وتم تعيين ابن خالتها رئيساً للطاقم الإداري وابن خالتها الأخرى رئيساً لطاقم التمريض.

أما البدروم فجعلوا به غرفة للطوارئ والحالات السريعة ومعظمه كان استقبالاً عاماً للاستعلام عن شيء أو انتظاراً من أهالي وزوار المرضى.

طابت لهويدا دنيا البنوك وتلاقت روحها مع رائحة البنكنوت وعمّقت جذورها وتشعبت ثم تسلقت لفرع البنك الرئيسي فأحسنت التسلق حتى نُقلت إليه فصعدت إلى قمة شجرة العلاقات وبدأت اللعب (من تحت لتحت) وأصبحت سمسار بنوك وأراضي فيما ظنت أنه في الخفاء لقد كانت مبدعة في التقليب والتهليب والاستثمار أحياناً فاستطاعت أن تقنع صاحب الأرض المجاورة للبرج أن يؤجّر لها أربعة قراريط فقط في مقابل مليون ونصف جنيهاً لمده عشرة أعوام ولّما كان الرجل لا يمتلك سوى ثمانية قراريط كما أنه ليس لديه القدرة على البناء ولا يمتلك غير راتبه هو وزوجته فقد كان المبلغ مغرياً لكنهم زادوه إلى مليون وسبعمائة وخمسين ألف فوافقت هويدا بشرط أن يكون الدفع شهري بحوالي ١٤٥٠٠ جنيه وبالفعل أحاطت المساحة كلها بسلك شائك قوى ومحكم وأقامت فيها قهوة شيك تعمل على مدار الـ ٢٤ ساعة وعينت به اثنين من الخفراء ليلاً مزودين بسلاح واثنين من (الركّينة) وزودت المكان بخدمة غسيل السيارات واستطاعت أن تجنى أكثر من ٦٢٠ الف جنيه شهرياً كربح غير إيراد القهوة.

كانت علاقة هويدا مع فاطمة تسير كما تخطط هويدا ولم تجد صعوبة في ذلك، كانت الصعوبة من قبل من الممكن أن تأتى حينما كانت الثانية تحتفظ بشبابها وعنفوانها لكن الآن هيهات وقد نال منها الشيب ما نال حتى أنه طال خادمتها التي لم تشب شعراً ولكنها قد شابت بدناً من فرط شقائها مع (ست الهانم أم الدكتور).

ولّما كان للشيب ذلته ولما كان للوحدة سمومها فقد أصيبت فاطمة بهياج دائم مع (الطالع والنازل) وعلا صوتها وصارت على حد قول الشغالة:

بقت حاجه صعبة قوى يا ست هويدا هانم.. آه والختمة الشريفة.

كان القرار أن تنتقل أم الدكتور إلى البرج واستقطعت لها هويدا نحو ٤٠ متر من البدروم من الجهة القبلية وأقامت لها غرفة للنوم وحمام صغير ومطبخ أمريكي واستقبال ضيق وُضع به أنتريه مستعمل، حيث يبدو الوضع إن حدث وشاهدها أحد أن فاطمة تحب الاستقلالية ولديها (هلع وفوبيا) من الأسانسير فاختارت وبإلحاح أن تسكن البدروم:

(يا حبيبتي يا حماتي إهىء إهىء إهىء)

أما عن خادمة فاطمة فلا بأس أن تقضى دقائق معها وساعات في خدمة مرات الدكتور.

ضمنت هويدا بذلك السيطرة على العجوز وأحكمت القفص وأقبضت على مفتاحه واستخدمت مع حماتها أسلوب (العصا والجزرة) وما كان من صاحبة الشيب إلا الطاعة فمن في مثل عمرها لا يمتلك إلا الطاعة.

(أبدان بتخلّص من أبدان)

الأدوار العليا الأربعة إلى جانب البدروم قد رُبطا باثنين من المصاعد (الأسانسير) أحدهما كبير لنقل سراير العمليات وعند الدور السادس علوى تم إغلاقه وفصله عن الدورين الباقيين حيث خصص الدكتور الدورين الخامس والسادس علوى لابنيه مدحت وأحمد أما الدورين الآخرين فكان لعبد الله عبدون وفاروق فؤاد كما اشترطت ست البنات ولكنها أرادت لهما الراحة ولكنهما لم يختارا لكن لا بأس (الأسانسير موجود).

اليوم هو عيد ميلاد ست البنات التي أقنعوها بضرورة الاحتفال بها احتفالاً يليق بكونها سيف عطا الله وبما أنعم الله عليها من سعة العمر فوصولها عتبة المائة عام مناسبة لن تتكرر(قالتها هويدا).:

- يعنى هموت خلاص يا مرات الدكتور

بعد الشر عن قلبك يا عمتو وحياة ولادي ما أقصد إهىء إهىء إهىء

كم كانت هويدا ممثلة بارعة وتحت الضغوط ولم شمل العائلة (والنبي يا عمتو) وافقت السيدة التي كانت تهوى ركوب الأسانسير.